زينب
نموذجا لفكر
« الجريدة » الاصلاحي

سماح ادريس

كانت مصر أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي تعيش وضعاً «يصعب تسميته»[١]. فقد كانت «تابعةً للسيادة العثمانية، مستقلة استقلالاً داخلياً عن تركيا، لكنها محرومة من هذا الاستقلال الداخلي بِسُلطان الانجليز. للأجانب المقيمين بها امتيازات تجعلهم أعلى من أبناء مصر رأساً وأوفر منهم كرامة»[٢].

في ظل هذا الوضع الذي أعقب فشل الثورة العُرابية، وبداية الاحتلال الانجليزي لمصر (١٨٨٢)، تكونت تيارات سياسية تعامل كل منها مع الاحتلال وآثاره بطريقة مختلفة. أهم هذه التيارات التيار الوطني، تيار الزعيم مصطفى كامل، الذي يُنادي بالجلاء التام والفوري للمحتل وبمنح الحكم الذاتي أو الا ستقلال الداخلي لمصر طبقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠... والتيار المو د علناً للاحتلال الذي يتغنى بمنجزاته التي «أنقذت» مصر من الحالة الاقتصادية المزرية التي خلفها لها الأتراك... وبين هذين التيارين، نشأ تيار «وطني معتدل» بزعامة حزب الأمة وبرياسة محمود سليمان باشا، وضم إليه جماعة من المثقفين على رأسهم أحمد لطفي السيد ليكونوا لسان هذا الحزب في صحيفة «الجريدة». وقد دعا هذا الحزب إلى الاتفاق مع الاحتلال، وإلى «المحاسنة المقرونة بالمحاسبة»[٣] كشرط للرقي السياسي.

وقد علل دعاة حزب الأمة موقفهم من عدم الثورة ضد الانجليز بجملة أسباب أولها «أننا لسنا أقوياء حربياً لكي نواجه انكلترا (...) وليس عندنا قائد يمشي بمصر الى ساحة الحرب»[٤]؛ وثانيها أنه لا أمل في الاعتماد على الخارج؛ وثالثها أنه لا رهان على أي ثورة داخلية. وقد عبر محمد حسين هيكل عن المبررين الأخيرين في مقالة الوحدة القومية[٥] حيث استعرض باختصار تاريخ مصر السياسي. فوجد انكلترا وروسيا تضربان مصر في أوج عزها أيام كان محمد علي يحتل اراضي شاسعة وترجعانه إلى حدود مصر. ثم جاء اسماعيل وظلم اسماعيل.. وبعدها حصلت ثورة عُرابي «لكن الدول تدخلت مرة أُخرى، ووقف الباب العالي بوجهنا، وبدل أن نكسب هذه الفرصة لمصلحتنا، خرجنا منها بحمل جديد هو حمل الاحتلال الانجليزي (...) ثم عَلّقتا آمالاً على فرنسا حاملة لواء الحرية، لكنها خذلتنا سنة ١٩٠٤[٦].. أما تركيا، فكانت أول من استنجد الدول ضدنا، كما أنها تخلت عنا أخيراً عند دخول الانجليز...».

إذن ـ يقول هيكل والحزب ـ لا أمل في الاعتماد على الخارج: لا على روسيا القيصرية، ولا على فرنسا (ففرنسا اليوم غير فرنسا الثورة الفرنسية وقيم العدالة والمساواة والإخاء)، ولا على تركيا التي يدعو الحزب الوطني إلى انضواء مصر تحت ظل خلافتها. . كما أنه لا يؤمل في اي ثورة تنهض للتخلص من الاستبداد. ألم تؤدِّ ثورة عُرابي سنة ١٨٨٢ إلى الاحتلال الانكليزي لمصر[٧]؟

وعلاوة على الاخفاقات الوطنية، وتكالب قوى الاستعمار على مصر، كان النفوذ الأوروبي يواصل زحفه بجيوش التجار والمرابين. «نحن اليوم تحت حكم فظيع ـ يقول هيكل ـ حكم الانكليز السياسي، وحكم أوروبا الاقتصادي»[٨]. وقد نبه من قبل قاسم أمين في كتابه (**أسباب ونتائج**) إلى النشاط التجاري الذي يقوم به الأجانب في مصر: «ولا أتكلم عن الانكليز في بلادنا، فإن لهؤلاء نفوذاً ظاهراً، ولكن أتكلم عن الرومي، والأرمني، والسوري، والهندي، والعجمي، والطلياني، وأمثالهم. أنت تعلم أن الفرد من هؤلاء يأتي خالي الوفاض صفر اليدين، فيبتدىء شغله بحرفة صغيرة، مهما كانت دنيئة هي أشرف من البطالة التي هي حرفة الكثير من المصريين»[٩]. .

هذه هي بعض المقدمات النظرية ـ المبررات، التي قدمها حزب هيكل، والجريدة لعدم توجيه جهودهما نحو إزالة الاحتلال الانكليزي. لكن المبرر الذي ركز عليه لطفي السيد وهيكل، ومن ورائهما قادة الاصلاح الأوّلون كالإمام محمد عبده[١٠] وقاسم أمين، يتمثل في المنطق القائل بضرورة وجود قوة اجتماعية وإقتصادية يمتلكها المصريون حتى يستطيعوا التخلص من الاحتلال. وهكذا، تحول العدو الحقيقي الذي يواجهه المصريون من الانكليز إلى. . . نفوس المصريين، وتربيتهم، وأخلاقهم وكسلهم. يقول هيكل: «إن القوة الحاكمة التي جاءتنا من الخارج إنما جاءت لتملأ فراغ الضعف الداخلي الذي يحتل نفوسنا والذي ينتج نقص مادة الحياة في بلدنا من وجوهها المختلفة: المادية، والعلمية، والاخلاقية»[١١].

لكن كاتب هذا المقال يرى أن كل هذه المبررات، وكذلك النظام الفكري المتكامل الذي استندت إليه فيما بعد كل المواقف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية، تبدو معلقة في الفراغ إن لم ترتبط بالأساس الاجتماعي ـ الطبقي الذي صدرت عنه.

فمما لا شك فيه أن حزب الأمة قد ارتبط منذ تأسيسه بصعود طبقة مصرية جديدة من الأغنياء الزراعيين تشكلت مع إصدار محمد علي لوائح وقوانين تثبّت ملكية المشايخ والعمد الفردية للأراضي المصرية، وبلغت أوج مرحلتها التأسيسية مع إعلان اللائحة السعيدية[١٢] التي سارت بالملكية الفردية خطوات أكثر تقدماً عندما تركت الدولة للفلاح حق التصرف والاستغلال الكامل للأرض الزراعية من بيع أو رهن أو ايجار أو توريث[١٣].

وقد أدى ظهور طبقة الأعيان «أصحاب المصالح الحقيقية» (كما سماها لطفي السيد) إلى نوع من الصراع الطبقي مع «أبناء الذوات» من جماعات الأتراك والألبان والشراكسة والمتمصرين «ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر، وينظرون الى جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام»[١٤].

إذن، لم يكن الصراع آنذاك بين المصريين والانكليز فحسب، بل بين الطبقات الاجتماعية المصرية وعلى رأسها طبقتا الأعيان والذوات. . ومن الطبيعي ان يقف ممثلو طبقة الأعيان موقفاً مناهضاً للثورة ضد الانكليز، لأن ثورة كهذه ـ في حال حصولها ـ قد تدفع طبقات أكثر ثورية للبروز إلى السطح. كما أن تلك الثورة قد تسد الأفق أمام تطور هذه الطبقة الاقتصادي والسياسي؛ هذه الطبقة التي تطمح الى تقوية ذاتها، والنهوض بالمجتمع من مرحلة الاقطاع إلى المرحلة البورجوازية «بكل ما تعني هذه المرحلة الأخيرة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته (. . .) ومن إعلاء لشأن «العمل» ونقد لقيم التبطل التي تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبار الملاك، والدعوة إلى إشاعة التنافس والطموح، وتنبيه الناس الى أهمية التجارة والصناعة والشركات، وخوض غمار المنافسة والمخاطرة في هذه الميادين ضد أوروبا التي كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية، سواء في صورة شركات وجاليات ومغامرين، أو في ظل جيوش وسلطات احتلال تحمي وتقنن ذلك النهب والاستنزاف»[١٥].

وقد حاول محمد حسين هيكل أن يقدم نموذجاً تطبيقياً لفكر الجريدة، الفكر «الثوري» لطبقة طالعة[١٦] من أحشاء مجتمع الإقطاع. . لكنه، من ناحية ثانية، فكر مستند الى تراث فكري عريق، عربي وأوروبي.

أما التيار العربي الذي نهل منه الدكتور هيكل في شبابه، فغزير جداً. فقد كان على اطلاع على شيء كثير من كتب الأدب العربي القديم[١٧]، ثم باشر بقراءة المؤلفات العصرية جميعاً، واتصل بالعديد من شعراء عصره وكُتابه[١٨]. لكن لعل الأثر الأكبر في توجيه ثقافته العربية، بشكل مباشر أو غير مباشر، إنما يعود الى اساتذة ثلاثة: أحمد لطفي السيد، والإمام محمد عبده، وقاسم أمين، كما سيتضح لنا في الصفحات القادمة.

وأما تيار الثقافة الغربية، فبينٌ من آثار هيكل[١٩]، واعترافه بذلك[٢٠]. وقد ذهب بروكلمان[٢١] إلى اعتبار هيكل «تلميذاً للثقافة الغربية..» والواقع أن هذا التأثر كان من نصيب جميع الكتّاب المصريين الرياديين الذين اتصلوا بالفكر الغربي من خلال بعثات محمد علي، أو بسبب النفي من مصر. وفي طليعة هؤلاء الكتاب رفاعة الطهطاوي، والأفغاني، وعبده، وأمين، مما أثمر ولادة فكر إصلاحي يطال جميع ميادين الحياة، ويسعى إلى الأخذ بمعطيات المنجزات الأوروبية الحديثة، وبمدارسها الفكرية (وعلى رأسها مدرستا الوضعية والمنفعة)، دون أن يكون ذلك على حساب القيم الأساسية للمجتمع المصري وفي طليعتها الدين.

الأفكار الإصلاحية في قصة زينب

الإصلاح السياسي:

أول ما يطالعنا في زينب تقديم هيكل لقصته بتوقيع «مصري فلاح» بديلاً من اسمه. ولعل في الكلمة الأولى من هذا التوقيع إعلاء لشأن الشخصية المصرية، في مواجهة العرب والأتراك المقيمين في مصر والذين يأنفون من الانتساب لها، واستجابة لدعوة أحمد لطفي السيد في بعث مصر، «التي ولدت التمدن مرتين»، والاعتزاز بماضيها.

كمايأتي هذا الإعلان عن «المصرية» في وقت اشتد فيه الجدل بين الحزب الوطني وحزب الأمة حول مفهوم «القومية». فمن يراجع برنامج الحزب الوطني الذي ألقاه **مصطفى كامل في ٢٢ اوكتوبر ١٩٠٧**، يُلاحظ طموح هذا الحزب إلى استقلال مصر استقلالاً ذاتياً تحت ظل الدولة التركية.. في حين عبر حزب الأمة بلسان لطفي السيد عن رغبة في أن تكون مصر مصرية «لا مشاعاً في الجامعة الاسلامية، ولا **لكل مسلم يَحِلُّ فيها» وقد تابع هيكل** موقف استاذه. ففي «وجهتنا في السياسة» يصر على «أننا مصريون، ومصريون فقط، بمعنى أن الواجب أن نجاهد لنكسب من كل الحوادث ما يزيد في استقلال مصر وسعادة سكانها»[٢٢].

هذه الدعوة إلى الوحدة القومية المصرية، في جانب أساسي منها، دعوة إلى الإصلاح (في نظر هيكل)، لأنه عندما يزول رهان المصريين على أي قوة خارجية، يستطيعون أن يكثفوا جهودهم ويتضامنوا من أجل رفعة مصر.

من الأفكار السياسية الإصلاحية الأخرى فكرة نقد ظلم الحكومة وتعسفها التي نجد هيكل يلحّ عليها. ويأتي هذا النقد تطبيقاً لمذهب الحريين عند جماعة الجريدة ورئيسها لطفي السيد، ويتلخص هذا المذهب في رفض تضحية حرية الأفراد لمصلحة الحكومة. فالحكومة يجب ألا يتعدى سلطانها ولايات ثلاثاً: البوليس، والقضاء، والدفاع عن الوطن، وفيما عدا ذلك تكون الولاية للأفراد والمجاميع الحرة.. أما سلطة الاستبداد، فقد شجبها لطفي السيد وطالب باعتماد حكم دستوري يستهدف الصالح العام ويخضع الحكومة نفسها لسلطان القوانين والشرائع العامة.

ومن نافل القول إن هذه الدعوة ترجيع لآراء الليبراليين في أوروبا الذين يعبرون ـ هم الآخرون ـ عن طبقة بورجوازية تحضم كل السدود التي تقف في وجه تطورها، وتطويرها الثوري للمجتمع.. وفي مقدمة هذه السدود، الدولة المستبدة. بل ذهب هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) إلى نقد الدولة في حد ذاتها، مفضلاً ألا تتحمل مسؤولية أمور مثل الكهرباء والصحة!! وقبلها جاءت «نصيحة» بانثام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) الوحيدة إلى الحكومة أن «الزمي الصمت!..» لكن يبقى أفضل من عبر عن أفكار الليبراليين السياسية (الاقتصادية) آدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠). فقد حدد وظائف الدولة بثلاث وظائف لا غير هي حماية المجموع من الخطر الخارجي، وحماية الأفراد من مظالم المواطنين الآخرين، وإنشاء مؤسسات ومشاريع عامة... وخطة سميث للحكومة، كما نرى، شبيهة إلى حد بعيد بخطة لطفي السيد.

أما الأفكار الإصلاحية الأخرى المتعلقة بالسياسة فهي قليلة جداً، بالمقارنة مع غيرها من الأفكار الاجتماعية والاقتصادية التي تزدحم في زينب. وتعود ندرتها إلى ما سبق أن ذكرناه في مقدمة هذا البحث، من اعتقاد مثقفي طبقة الأعيان بضرورة تقديم الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي على الإصلاح السياسي، وعلى مطلب الاستقلال بصورة أكثر تحديداً.. وقد رأينا هيكل (في زينب) لا يوجه أي نقد لسلطات الاحتلال، اللهم باستثناء السخرية من حماقة بعض الموظفين الانكليز!.. بل ان الأمر يبلغ حد تبرير بعض تصرفات الانكليز الاستعمارية! فابراهيم مضطر إلى القتال خدمة لجيش الاحتلال في مجاهل السودان لأنه لا يملك مالاً يشتري به حريته. وبدلاً من ان يطالبه حامد (وهو ـ هنا، على الأقل ـ صورة لهيكل) بعصيان الخدمة العسكرية أو على الأقل باستنكارها ـ كما فعل ابراهيم، وحامد نفسه في أول الأمر ـ نجده (حامداً) يتهم ابراهيم بتسطيح الأمور: «فالمصري ـ وإن كان ذاهباً اليوم لأعمال دنيئة لا معنى لها ـ ولكنه يمثل على كل حال أمته وجيشها (...) وسيحفظ له الزمان انه كان الصلة ما بين عظمة هذا الجيش القديمة وعظمته المأمولة المرتقبة(!!..)»[٢٣].

ألا يدعونا هذا الموقف إلى مقارنته بموقف أستاذه أحمد لطفي لسيد، إبان الحرب الايطالية التركية سنة ١٩١١، الذي حث فيه المصريين على التزام الحياد المطلق وعدم معاونة دولة الخلافة[٢٤]؟ لِمَ لَمْ يقف هيكل الموقف نفسه في حرب الانكليز ـ «المصريين»؟ الجواب المنطقي الوحيد: هو أن الانكليز غير الأتراك، وأنه ليس من مصلحة الأعيان الوقوف على الحياد في حرب يشنها الانكليز، حتى لو كان وقود هذه الحرب لحم المصريين، وبارودها عرقهم ودمهم!

الإصلاح الاقتصادي ـ الاجتماعي في زينب

ما إن نُباشر في قراءة زينب حتى تطالعنا صورة الاستغلال البشع الذي يتعرض له العمال على يدي مالك الأرض. فالمالك لا يكتفي بدفع أجر زهيد لهم «مستغلاً بذلك نظير قوتهم الحقير»[٢٥]، بل يماطلهم في هذا الدفع ويؤجل فيه أياماً بعد أيام.. وهو، من جهة ثانية، يفتقد الحدَّ الأدنى من الشعور الانساني.. فهذا «عطية أبو فرج مرض اسبوعاً لم يخرج منه إلا بستة قروش. وهو يعول امرأة وبنتا صغيرة، ويساعد أما دقتها الأيام ولم يبق لها من أبنائها من يعينها سواه»[٢٦].

ويعود هيكل في مكان لاحق[٢٧] ليصف واقع الفلاحين الشقي، ينتظرون أن تأتي المياه وتروي الحقول فيسعدوا قليلاً. ولكن، من أين تأتي سعادتهم، وهم لا يزالون ينوءون تحت سياط[٢٨] الضرائب التي فرضتها الحكومة عليهم؟!

وتتعدد في الرواية مشاهد الفقر والظلم اللذين يعانيهما الفلاح. أما «العلاج» الذي يطرحه هيكل فهو «ان يمد السيد يد المعونة للفلاح، أو أن يرفعه من درك الرق الذي يعيش فيه (...) لأن هذا المجموع العامل يكون أكثر نفعاً كلما زادت أمامه أسباب المعيشة وتوفرت عنده دواعي الطمع في أن يحيا حياة إنسانية»[٢٩].

عند التدقيق في التبرير الذي أعطاه هيكل للمساواة، يتضح لأي قارىء المنطلق الليبرالي (الرأسمالي) لإصلاح هيكل الاقتصادي ـ الاجتماعي. فهو لم يقل: «يكون أكثر سعادة»، بل «أكثر نفعاً»؛ ولا حاجة للبحث عمن سيكون المعني بهذا النفع! ومما يعزز التأكيد على منطق هيكل الرأسمالي استخدامه لمصطلح «الطمع» دونما حرج. ولماذا الحرج؟ أليس الطمع عند جماعة الرأسماليين فضيلة اجتماعية؟ أليس «أن الواحد مهما كانت نواياه أنانية يعمل غير شاعر لخير الجميع»[٣٠]؟ وهل هذا مخالف ـ ولو قليلاً ـ لنظرية آدم سميث الشهيرة المعروفة بنظرية «اليد الخفية» والتي تشكل شعار الاقتصادي الرأسمالي الكلاسيكي[٣١]؟

يأتي موقف هيكل هذا موازياً لخط الجريدة، أي موازياً ـ مرة أخرى ـ لخطة سير طبقة الأعيان الثائرة على مجتمع الامتيازات والألقاب والوراثة، الممجدة لقيم المجتمع الجديد، وعلى ذروتها الحرية الفردية. وفي سبيل ذلك، ذهب لطفي السيد إلى اعتبار الاشتراكية مذهباً يعيق مصر عن التقدم، وحجته في هذا أن على الفرد أن ينشط بعدما أوهنت الحكومات السابقة حس العمل والطمع عنده، وأضاعت «بغدرها وظلمها» (كما عبر من قبل قاسم أمين) «الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية»[٣٢]. وفي الجريدة، نرى الدكتور هيكل متابعاً لأستاذيه في وجوب «إطلاق يد الفرد في عمل ما يريد ما دام لا يضر بغيره (...) وبسبب ذلك تعيش كل طائفة في الغرب أحسن من طوائفنا، ولها مال وترف أكثر..»[٣٣].

والحقيقة أن دعوة الجريدة نفسها (ومن ورائها قاسم) تبرز في زمن اشتد فيه نشاط الأجانب المقيمين في مصر، وخاصة على الصعيدين التجاري والصناعي. وقد ارتأى هيكل (ولطفي السيد) تكوين أفراد مسؤولين يكونون قادرين على مزاحمة الأجانب وانتزاع مواقعهم الاقتصادية من غير إبطاء[٣٤]. وحول هذه الموضوعة يُصرّح الدكتور هيكل بأنه «يجب على المصريين ان يقيموا بين هذه الأشخاص الأجنبية الكثيرة أشخاصاً مصرية تقدر على الوقوف إلى جانبها أولاً، ثم ان تأخذ بيدها حركة البلاد أخيراً»[٣٥].

بعد أن رأينا الحماسة التي يندفع هيكل في تيارها باتجاه اطلاق الحر ، الفردية كضرورة لارتقاء المجتمع، قد يسأل سائل: ولماذا نسمعه في الرواية يشجب استغلال المالك للفلاح، ويتغنى بالاشتراكية؟!

إن المؤلف في موقفه الأخير إنما ينطلق من تأثره بالمفاهيم الرومنطيقية من جهة أولى، وبالإصلاح البورجوازي الذي عم أوروبا آنذاك.. فمن الجهة الأولى، يحكي عن الاشتراكية، لا كنظام إقتصادي يقضي على الملكية الفردية بوصفها علة استغلال طبقة لأخرى، وإنما كنمط حياة يتسم بالطبعية والبعد عن التكلف، وضمن إطار طبقة واحدة، هي.. طبقة العمال[٣٦]! وهذا يذكرنا بتمجيد شعراء اوروبا الرومنطقيين لحياة الفلاحين الخالية من الإدعاء، المتحللة من قيود المجتمع الكلاسيكي «الذواتي»... ومن الجهة الثانية، توضح لنا مقالات هيكل في الجريدة أن الاشتراكية التي عناها في زينب ليست إلا على مستوى

الاصلاحات التي قامت في أوروبا الغربية «بعد الشقاءالذي لحق ببعض طوائف العمال نتيجة وطأة الحرية الفردية»[٣٧].

يبقى أخيراً السؤال التالي: من يقوم بهذه الإصلاحات؟ إنه «السيد». هو المؤهل الوحيد لذلك. لاحظ أن السيد هو من «سيمد يد المعونة للفلاح لانتشاله من الرق»[٣٨]ولكن يكفيه «أن يرى»، فحسب، «ويلات الفقير حتى يساعده (..) ولكن عظمته ورفعته تقضي عليه ألا يتنازل ليرى شيئاً من شقاء الانسانية..!»[٣٩] وإلا، فمن سيصلح الوضع؛ والفقراء متفرقون؟ لذلك، وجب على ابراهيم «أن يصبر (أي ان يستسلم) حتى يجد من بني طائفة الفقراء العمال من يتعاون معه على دفع بلوى المجموع والأخذ بالثأر من حكام الجمعية الغاشمين..»[٤٠] وكأنه فات هيكل ـ أو أنه آثر ذلك ـ أن فرداً ثائراً قد يقدر، في جو عابق بالشعور بالاضطهاد، على استنهاض مجموع ذليل، على نحو ما حاول «كافر» جبران مثلاً..

الإصلاح الديني في قصة زينب

كان من أبرز ثمرات الاحتكاك بالغرب، ذلك الاحتكاك الذي انتجته الحملة الفرنسية على مصر والبعثات التي ذهبت الى أوروبا، أن بدأ مثقفو المجتمع المصري بالتساؤل عن سبب تخلف مجتمعهم وعجزه عن اللّحاق بركب التطور الحضاري الذي نعمت به أوروبا في مختلف ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة.. ومما ألحَّ على هؤلاء المثقفين بضرورة التحرك، أن بعض المفكرين الفرنسيين عزا ذلك التخلف إلى طبيعة الدين الإسلامي، متهماً الاسلام ـ في جوهره ـ بالعداء للعلم، وبكونه سلطة دينية وسياسية (لا روحية فحسب) تعيق المجتمع عن التطور السياسي والاجتماعي.

وقد شكل هذا الموقف الغربي من الإسلام ودعوته تحدياً مثيراً لرجال عظام أمثال الامام عبده وقاسم أمين وغيرهما. ويعتبر كتابا الامام عبده **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، **والرد على هانوتو** رائدين في هذا المجال. فالاسلام ـ جوهراً، بل وتطبيقاً بشكل عام ـ صديق للعلم، لا متصادم معه.. وعلى من يفهمه عكس ذلك، ان يعود الى ينابيع الدين الأولى حيث الاسلام مجلو، خالِصٌ من قيود التقليد والعادة.

أما بالنسبة للتهمة الموجهة الى الاسلام بأنه سلطة دينية، فقد كان جواب الإمام في رده على هانوتو قاطعاً: «ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة (...) وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم»[٤١]. بل ذهب الإمام[٤٢] إلى اعتبار «القضاء» و«الإفتاء» وغيرها من المؤسسات المشابهة «سلطات مدنية لا يسوغ الشرع الإسلامي (لأي قاض، أو مفتٍ أو شيخ إسلام) أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد..».

وقد تابعت الجريدة حركة الإمام عبده (والسيد الأفغاني) لا سيما في المطالبة بالتفكير الحر والاجتهاد في المسائل الدينية بما يلائم العقل وروح العصر. وكانت هذه الحركة موضع اعجاب محمد حسين هيكل، فقرأ **الاسلام والنصرانية**، ورسالة الأفغاني **في الرد على الدهريين**، وطالع مقالات العروة الوثقى، وكان لها «أبلغ الأثر في نفسه»[٤٣].

ومن يقرأ زينب، لن يعثر على خطة إصلاح ديني شبيهة بخطة الإمام عبده، بل على نقد لأحد مشايخ الطرق الذي يحتال على العباد مستغلاً حاجتهم الى عزاء «وسلوان» ليسلبهم أموالهم وإراداتهم.

ولا ريب في أن موقف هيكل من رجل الدين ينبع ويصب في تيار الإمام والجريدة، الشاجب للسلطة الدينية على الناس.. فقد بيّن لنا المؤلف أن السلطة الدينية، إذا تخطت إطار الموعظة، تغدو سلطة اجتماعية واقتصادية تلهي الناس وتعيقهم عن العمل، أساس التطور.. فليس هناك ما يبقي مصر على تخلفها كأن يقبع المواطنون في حلقات ذكرٍ يرددون الاسم تلو الاسم من أسماء الله الحُسنى، بدل ان ينصرفوا الى العمل الذي، بدونه، ستخسر مصر معركة «التزاحم في الحياة» ضد الأجانب وبقايا الذوات، وينهزم المجتمع الجديد القائم على التفكير الحر، مجتمع الطبقة البورجوازية[٤٤].

الإصلاح الاجتماعي في قصة زينب

لعل جميع جوانب الاصلاح التي طرق محمد حسين هيكل سبيلها قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التي نظر لها في **زينب** وفي مقالاته[٤٥] في الجريدة، عنينا قضية تطور المرأة المصرية، كمقدمة لتطور العائلة والمجتمع.

وبديهي أن هيكل لم ينطلق في دعوته تلك من فراغ. فقد آرتاد كثير من المفكرين والمصلحين في شرقنا العربي في العصر الحديث ميدانها، وفي طليعتهم رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) الذي أعجب بالمرأة الباريسية على نحو ما يذكر في **تخليص الابريز في تلخيص باريس**، وأعلن في **المرشد الأمين** ضرورة تعليم المرأة... كذلك يفتق أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨) بعض موضوعات حرية المرأة في **الساق على الساق**. لكن الوحيد

من بين كل هؤلاء الذي وهب كل جهوده وأهم آثاره ـ تقريباً ـ لهذه الدعوة، كان قاسم أمين[٤٦].

وعندما نشر قاسم كتاب **تحرير المرأة** سنة ١٨٩٩، قامت ضجة كبيرة في مصر، وخاصة حول قضيتي الحجاب وتعليم المرأة. فقد كان تعليم المرأة بومئذٍ «أمراً إداً لا يقدم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصري له. . أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة الى المجتمعات، فكان القول به أدنى الأشياء إلى تحليل ما حرم الله . .»[٤٧] لذلك، قامت جريدة اللواء تتهم قاسماً بمخالفة الدين وتؤيد الخديو في موقفه من التحريم على قاسم دخول عابدين ونزعه من منصب المستشار في الاستئناف؛ كذلك هاجمت جريدة المؤيد كتاب أمين بعدما نشرته.

لكنه في المقابل، ظهرت شخصيات وكتب تدعم وجهة نظر قاسم[٤٨]. إلا أن الدعم الأساسي لتحرير المرأة وتعليمها، إنما جاء من جريدة الجريدة ومن محرريها المطلعين على تطور المرأة الغربية ودخولها ميدان السياسة والبرلمان، والمتطلعين إلى نهضة المجتمع المصري ليكون قادراً على مواجهة التحديات، تحديات الأجانب والإقطاع. «وهل تطلب أمة لنفسها الاستقلال والحرية وتقضي على شطرها بالرق والعبودية»[٤٩]؟

ولما كان محمد حسين هيكل أحد أولئك المطلعين والمتطلعين، فقد أعاد قراءة **تحرير المرأة**، و **المرأة الجديدة** واقتنع «بأن الرجل على حق، وبأن ما يقوله من البديهيات. .»[٥٠] بل رأى فيه نبياً قادماً إلى الناس لينتشلهم من عتيق أوهامهم التي غرسها الاستبداد والجهل في نفوسهم. فتابعه بعزم في الجريدة، وذهب إلى أبعد مما ذهب اليه قاسم في بعض الأمور، وخاصة في تعليم المرأة. ففي حين لم يدع قاسم في مجال التعليم إلا إلى مساواة المرأة بالرجل على المستوى الابتدائي، نادى هيكل بوجوب تعليمها لتصل «الى درجة الأدباء والفلاسفة»[٥١].

لكن القضية التي أولاها هيكل أكثر أدبه في المرحلة الأولى من كتاباته كانت دون شك، قضية الحجاب، التي ذهب إلى عدها «كبرى المسائل الاجتماعية في مصر»[٥٢] بل «هو (أي الحجاب) الشيطان الساكن أرض مصر، القاضي على قوة أهلها وعلى عزتهم وسعادتهم»[٥٣]. وقد شكلت هذه القضية مدخلاً لنقده لكل قيم المجتمع المصري، وخاصة بالنسبة لقضية المرأة (العائلة، الزواج. . .) وإن لم تكن هذه القضية وحدها محور هذا النقد. . فهنا لا بد من التنويه بأن الدعوة الى نزع الحجاب تنسجم أشد الانسجام مع المطالبة بالحرية الاقتصادية التي بشر بها «أولو الرأي» والتي تتلخص ـ كما أسلفنا ـ في ضرورة نزع كل الحجب» التي تعيق عملية التطور الرأسمالي عن أخذ مجراها، مثل حجاب الخوف من المغامرة، وحجاب قوانين الدولة، إلى آخره.

بعد هذا الاستطراد القصير، نعود الى التأكيد على أن زينب قد كتبت انسجاماً مع خط الجريدة، وأساتذتها الأوائل في إصلاح المجتمع. لكن الرواية لم تأت لتصلح بشكل مباشر ـ كما سنحاول ان نبين ـ بقدر ما جاءت لتفضح عيوب النظام الأسري والاجتماعي في الريف والمدينة.

وفي هذا المجال، ينبغي التمييز بين وضع المرأة في الريف ووضعها في المدينة، على الأقل من ناحية هامة جداً، هي ناحية العمل. فالريفية، كزينب، تعمل بيديها في الحقل، وتجمع القطن، وتحتك بالفلاحات والفلاحين وأرباب العمل. وهي ـ في سبيل إنجاح وظيفتها الاقتصادية تلك ـ بحاجة إلى السفور، وإلا كان عملها صعباً. وأما امرأة المدينة، ممثلة بعزيزة، فليست تحتاج الى أي عمل يدوياً كان أم اجتماعياً (بمعنى الاحتكاك مع الأغراب). . هنا نلاحظ ان معادلة (الريف ـ المدينة) توازي معادلة (الطبقة الفقيرة ـ الطبقة الوسطى). والنتيجة ان المرأة المدينية (الغنية) تلتزم الحجاب، وتقبع في الدار، منذ سن البلوغ، فتضمحل ثقافتها وتقتصر على الكتب الغرامية السطحية، ويذبل لونها وينحل جسدها بسبب حرمانها من الشمس والحركة. . في حين «تتثقف» الريفية بالخبرة والعمل اليومي. . إذن، من هذه الناحية، يتبين ان امرأة الطبقة الوسطى أحوج إلى الإصلاح من الفقيرة. وهذا ما تبنته الجريدة في خطة الإصلاح الاجتماعي. وهو ما أشار اليه من قبل قاسم امين إذ قال: «كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر، زاد جهلها. . إن آخر طبقة من نساء الأمة، وهي التي تسكن الأرياف، هي أكملهن عقلاً بنسبة حالها. .»[٥٤].

لكن الأمر يختلف من ناحية ثانية: فالفلاحة والموسرة تتساويان في الاضطهاد، لأن المجتمع المصري ـ بغض النظر عن طبقاته المختلفة ـ مجتمع أبوي يتسلط فيه الأب والزوج على البنت والزوجة والأم. ليست عزيزة وحدها من تزوج من غير أخذ رأيها في شريك حياتها، بل تقاسي المصير نفسه زينب المتحررة من الحجاب، المخالطة للشباب. والمسؤول عن مأساة الاثنتين الأهل. . بل هو الأب وحده! فمن منا ينسى ذلك المشهد المخزي حقاً: الأب يبيع ابنته (ولو بعد ممانعة شكلية يحسمها ـ مرة أخرى ـ المشترون من الرجال)، فيما زينب تسمعهم من أعلى السطح «وأمها إلى جانبها قلقة!» دور المرأة، زوجاً، مغيب هو

الآخر بالنسبة لتقرير مصير البنت.. وهو (أي دورها) أسوأ بكثير بالنسبة لزوجها، وعائلة زوجها! فزينب، المزوجة رغماً عنها، غدت في منزلها الجديد «خادماً مطيعاً»[٥٥] لأفراد عائلة حسن الذين ألقوا عليها الأحمال، موفرين على أم حسن وأختيه تعباً عظيماً!

ونتيجة لعدم تحرر المرأة (الذي يظهر في إلباسها الحجاب، وحرمانها من تقرير مصير حياتها في المستقبل)، جاءت العائلة تنذر بالانهيار. لماذا؟ لأن الحب سحق تحت أقدام مجتمع لا يعير مشاعر الحرية والجمال أي تقدير.. ولذلك، لم يبق من العائلة إلاّ.. آلة التفريخ المقصورة مهمتها على «التناكح والتناسل»[٥٦].

ونسارع الى القول إن هيكل لا يرفض الزواج بالمطلق. فالواضح أن من يمثل رأي الكاتب في هذه الموضوعة هو حسنين، صديق حامد، لا حامد نفسه.. ومؤداه ان الزواج ـ ومؤسسة الزواج بالتالي (العائلة) ـ هو «عماد السعادة وأحسن ما انتجت عقولنا لحفظ النوع في أضمن ما ترجو له من الهناء»[٣]، إذا توفر لهذا الزواج مقوماته الأساسية في الحب والحرية والتربية الاجتماعية الصحيحة.

لكن هيكل يقدم لنا «إصلاحاً» للعائلة ثانياً: هو عدم التزاوج بين الطبقات. وفي الرواية عدة إشارات الى هذا الاتجاه، نقتطف منها ثلاثاً:

ـ زينب لم تكن تحس بحاجة لأن تعطي نفسها لحامد «لأن النفس تطمح (...) إلى شخص يعدلها في المكانة (...) أو كأنه الحنين (...) يجعلنا ننظر الى بني طبقتنا وطائفتنا دائماً كأنهم اخوان، وبينهم وبيننا من الرابطة ما لا نعرفه من قبل الطبقات الأخرى (...) فمنهم نطلب الصديق والشريك والمحب والزوج، لأنهم، قبل غيرهم، موضع حبنا وثقتنا..»[٥٨].

ـ عندما يتزوج حسن من زينب، نجدها متغربة وسط عائلته «التي تخالف عائلتها في طبقتها ووجودها ومعيشتها كل المخالفة»[٥٩]، علماً أنه ـ كما ظهر في الرواية ـ ليس هناك من فارق اجتماعي شاسع بين العائلتين.

ـ حامد نفسه الذي يظهر أحياناً بلباس «التقدمية الاجتماعية»، لم يكن يود أن يقيم مع زينب علائق تناسلية (أي علاقات تفضي إلى الزواج وتكوين اسرة).

«كلا! وإنما كان غرضي أن أحادثها أو أنفرد بها أو.. أقبلها»[٦٠]. ويعلل ذلك في محاولة لإيهامنا (وإيهام نفسه) بأنه ليس من الضروري أن تكون صلة الزواج هي الصلة الوحيدة بين رجل وامرأة كما يعلمنا الوسط الاجتماعي.. ما هي، إذن، الصلة الأخرى غير الزواج يا ترى؟ وتأتينا الإجابة من حامد: «إني اليوم أحس بأن بين الطبقات المختلفة فواصل صعبة الاجتياز، اللهم إلا إذا أردنا أن نتخذ من هذه الطبقات محلاً للهونا!!!»[٦١] وفي هذه الإجابة إقرار بأن الاختلاط بين الطبقات ينبغي ألا يتخطى إطار اللهو، وبصراحة أكثر، إطار الاستغلال الجسدي؛ (وهو ما ينفر منه حامد في رسالة الاعتراف الأخيرة).

هذا يدفع بنا إلى الخوض في السؤال التالي: هل هناك تناقض، أو تشوش في تفكير هيكل بالنسبة لإصلاح وضع المرأة على وجه الخصوص؟

إن القارىء ليجد ذلك بوضوح. فالكاتب تارة يمدح المرأة الفلاحة غير المحجبة لأنها طبيعية ولأنها تفسح في المجال أمام علاقات يدعي انها «بريئة»؛ وتارة ينفر من نفسه حين يخالط احداهن من العاملات «المتحررات» ويُحس أنه ارتكب خطيئة، ومع من؟ «مع فتاة عاملة بسيطة!!... ثم يعود ليؤنب ذاته على عدم قضاء «سويعة أخرى» مع بنت «تتعلق بعنقه وتضمه اليها ويضمها..»[٦٢]، ساخراً من الفضيلة والتبتل وحياة الجد التي تحرم الانسان سحر الحياة والطبيعة.. لكنه لا يلبث ان يجد نفسه انحطت إلى أسفل الدركات في إقامة علاقة مع فلاحة. إنها المفاهيم النظرية الموروثة عن مجتمعه الغارق في تقديس الفضيلة والدين والاستقامة، تصطدم برغبة شاب يعشق الحياة والجميلات؛ بشاب تغذى من رومنطيقية الشعراء الاوروبيين في تمجيد الحب والعلاقات الطبيعية.. وهي هي المعتقدات الطبقية للبورجوازية المصرية في صراع مع «اشتراكية» روسوية مكتسبة، «تهزم كل الفوارق الصناعية (...) بين الناس من أجل ان تكون الفطرة الطبيعية هي القائد والمرشد في كل حال..»[٦٣].

ليست مسألة بسيطة ان تزاوج الوطن والغرب. فالوطن يعني الدين، والعفة، لكنه يعني ـ في الوقت نفسه ـ الموت[٦٤]. والغرب يعادل الحرية والمساواة إلا انه ـ في آن معاً ـ صنو الفساد والاجرام[٦٥].... فأيهما يختار حامد (هيكل الشاب)؟

إنه سؤال خطير، والجواب عليه لن يكون حاسماً، لأنه يؤدي إلى الغرق في مستنقع التقاليد الراكد، أو إلى نسف هذه التقاليد.. ولذلك يختار حامد الهروب، ويترك هيكل شخصياته تستسلم واحدة تلو الأخرى إبتداءً بعزيزة وانتهاءً بزينب، مروراً بإبراهيم. وكأن المؤلف يريد بذلك ان يقول: إذا لم يحدث إصلاح ما، زوجت أيتها النساء، رغماً عنكن فتقضين ايامكن في ذبول يفضي بكن الى الموت... وإذا لم يحصل تطور ما، أجبرت ايها الفقير على تنفيذ أوامر حكامك، وهربت ايها المثقف الى حيث

لا تدري بحثاً عن راحة بال لن يكون سهلاً حصولك عليها.

*

على أن زينب، وهذا ما يشفع لها، هي رواية قبل كل شيء، تكشف العيوب وتسلط الأضواء على الجوانب العفنة من حياة المجتمع المصري في تلك الحقبة من الزمن، دون أن تتصدى لايجاد الحلول لكل المشاكل الاجتماعية والسياسية وغيرها.. ومع ذلك، فقد استطاعت زينب ان تعكس بأمانة صورة المجتمع المصري، وان تكون الصدى لواحد من أهم التيارات الفكرية التي كانت «تطمح لإنهاض مصر من جاهلية التبعية للغرب، والإقطاع، والتخلف... عنينا بذلك تيار جريدة الجريدة التي صدرت سنة ١٩٠٧ وناضلت ضمن الظروف الموضوعية لتلك الحقبة وضمن الحدود الفكرية لطبقة الأعيان ـ واستطاعت ان تشكل ركيزة في حركة تطوير المجتمع المصري.

* * *

المراجع

أمين، قاسم: **الأعمال الكاملة**. تحقيق الدكتور محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٦.

جريدة الجريدة (١٩٠٧ ـ ١٩١٤).

السيد، أحمد لطفي: **محمد حسين هيكل**، مقالات جمعها لطفي السيد. مطبعة مصر ١٩٥٨.

ضيف، شوقي: **الأدب العربي المعاصر في مصر** (١٨٥٠ ـ ١٩٥٠). دار المعارف بمصر.

عبده، محمد. **الأعمال الكاملة**. الجزء الأول، تحقيق محمد عماره. المؤسسة العربية، الطبعة الأولى ١٩٧٢.

علي، سعيد اسماعيل: **المجتمع المصري في عهد الاحتلال البريطاني** ١٨٨٢ ـ ١٩٢٣. مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢.

عمر، محمد: **حاضر المصريين أو سر تأخرهم**. مطبعة المقتطف ١٩٠٢.

نجم، محمد يوسف: **العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث**. بحث.

هيكل، محمد حسين: **زينب، مناظر وأخلاق ريفية**. الشركة العربية للطباعة والنشر.

هيكل، محمد حسين: **مذكرات في السياسة المصرية. الجزء الأول**. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١.

جان جاك روسو، بلا تاريخ.

وادي، طه عمران: **الدكتور محمد حسين هيكل، حياته وتراثه**. مكتبة النهضة ١٩٦٩.

Liberalism; Adam Smith, Jeremy Bentham.
Encyclopaedia Britannica :مواد

Samuelson : Economics. 10 the Edition.

Smith, Adam: An Inquiry into the Nature and Causes of the Weath of Nations.

* * *

الهوامش

(١) Haekal, **La Dette Publique Egyptienie**, p. 5.

(٢) محمد حسين هيكل، **مذكرات في السياسة المصرية** ج ١، ص ١٩٠.

(٣) أحمد لطفي السيد، «الجريدة» في ١٩٠٧/٤/٣٠، عدد ٤٤.

(٤) هيكل، حالتنا الحاضرة (٢). «الجريدة» ٨ سبتمبر ١٩١٤ (رقم ١٦٧٢).

(٥) هيكل، الوحدة القومية (٢) [وجهتنا في السياسة] الجريدة في ٣٠ أوكتوبر ١٩١١ (عدد ١٤٠٧).

(٦) ١٩٠٤: وقعت فرنسا وانكلترا «اتفاقاً ودياً» أطلقت بموجبه يد الانكليز في مصر!

(٧) لا ريب في أن فشل ثورة عُرابي قد شكل صدمة كبيرة للتيار الوطني. وفي هذا يقول الدكتور محمد عماره: «فالقائد الذي جسد المصريون في شخصه أحلامهم القديمة والحديثة، قد سلم نفسه، وسلم سلاحه، وكوكبة عزيزة من قادة جيشهم قد قتلوا بالخيانة في التل الكبير، وعدد كبير من الذين ناصروا الثورة قد تنكروا لها، وأنكروا دورهم فيها، وقذف كل منهم بالمسؤولية على من سواه!» في **مقدمة الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده**، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٨) وجهتنا في السياسة، الحرية المطلقة، ٢ نوفمبر ١٩١١ (عدد ١٤١٠).

(٩) **الأعمال الكاملة لقاسم أمين**، تحقيق محمد عماره، ص ١٩٥.

(١٠) في عدد الجريدة رقم ٢٥٧ نقرأ ما يلي: «لا يجهل أحد أن الذين قاموا بتأسيس الجريدة والذين يقومون بأعمال حزب الأمة (...) يوجد بينهم عدد غير قليل من أصدقاء الشيخ المرحوم وتلاميذه وأنصاره، ومعظم هؤلاء كانوا يرون رأيه في كثير من مذاهبه الفقهية والاجتماعية والسياسية..».

(١١) وجهتنا في السياسة، الحرية المطلقة (٢) الجريدة، ٤ نوفمبر ١٩١١.

(١٢) نسبة الى الخديو سعيد باشا. وقد صدرت هذه اللائحة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨.

(١٣) كمثال على تعميق الملكية الخاصة، انظر الى البند الخامس من اللائحة السعيدية: «كل من كانت تحت يده أطيان من الأراضي الميرية الخراجية ذكراً كان او انثى،

ومكلفة عليه وواضع يده عليها خمس سنوات فأكثر، وقائم بما عليها من الخراج لجهة الميري، فلا تنزع من يده ولا تسمع فيها دعوى ولا قول من أحد! . . .» (الدكتور سعيد اسماعيل علي، **المجتمع المصري في عهد الاحتلال البريطاني**» ص ١٣٨).

(١٤) **مقدمة قصة زينب**، ص ٨.
(١٥) محمد عماره، **مقدمة أعمال قاسم أمين الكاملة**، ص ٤٥.
(١٦) يذكر الدكتور حسين النجار ان أبا محمد حسين هيكل كان «سيد قومه وعشيرته وأحد أفراد هذه الطبقة المصرية التي أخذت تسود الريف المصري وترث ما كان للطبقة التركية من ثراء ونفوذ يعززهما جاه العشيرة وعصبية الأسر الريفية الكبيرة (من مقالة للدكتور النجار في كتاب **محمد حسين هيكل** ص ٥. وهو كتاب أشرف على إعداده أحمد لطفي السيد).

(١٧) **ثورة الأدب** للدكتور هيكل، ص ٣٥. وفي **المذكرات** (ج١، ص ٢٥)، يذكر أنه انصرف الى قراءة «أمالي القالي وأغاني الأصفهاني وأمثال الميداني والبيان والتبيين للجاحظ. . .»
(١٨) أبرز هؤلاء الأدباء: أمير الشعراء، ومطران، وحافظ، وطه حسين.
(١٩) راجع مقالات هيكل في الجريدة، وكتاب (**جان جاك روسو**) مثلاً.
(٢٠) **من هذه الآثار التي قال هيكل إنه قرأها: الحرية لميل، والعدل لسبنسر، والأبطال والثورة الفرنسية لكارليل، وبعض كتب روسو، وأناتول فرانس (جمع هيكل مقالات كتبها عنه في كتاب في أوقات الفراغ)** وبيير لوتي، وغيرهم.

(٢١) **تاريخ الأدب العربي**، ص ٢٠٢.
(٢٢) وجهتنا في السياسة، الوحدة القومية، عدد ١٤٠٥ (٢٨ اوكتوبر ١٩١١).
(٢٣) زينب، ص ٢٣٣.
(٢٤) سياسة المنافع لا سياسة العواطف»، ثلاث مقالات في الجريدة بقلم لطفي السيد (صيف ١٩١١).

(٢٥) زينب، ص ٢٢.
(٢٦) زينب، ص ١٦.
(٢٧) زينب، ص ١٦٨.
(٢٨) تعبير «سياط الضرائب» ليس مجازياً فحسب. فقد كتب وولف الى اللورد سالبوري يقول: «إن الضرائب لا تتحصل إلا بالكرباج (. .) وبدونه يكون تحصيل الضرائب بطيئاً. . .» (الدكتور علي في **المجتمع المصري**، عن يوسف آصاف، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣).
(٢٩) زينب، ص ٢٣.
(٣٠) زينب، ص ١٨.

(٣١) نورد بتصرف بعض ما جاء في كتاب سميث «بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» An Inquiry into the Nature and Canses of **The Wealth of Nations** حول نظرية اليد الخفية The Invisible Hand:

«لا يعتزم المرء، في الحقيقة، ان يرتقي بالمجموع؛ وليس يعلم ـ كذلك ـ إلى أي درجة يقوم بذلك. ولكن، بمجرد ان يوجه هذا الرجل عمله بغية تحقيق أكبر كسب شخصي له، فانه (. . .) مقود بيد خفية الى تحقيق هدف آخر لم يكن في أساس قراره! . . . في بحث (هذا الرجل) عن مصلحته، غالباً ما يعزز مصلحة الجميع بصورة أكثر فاعلية مما لو أراد ذلك (!!). لم استطع أن أقف، في الواقع، على خير كثير يرتجى من اولئك الذين تصنعوا التجارة بالسلعة العامة. إنه تصنع، حقيقة، ليس كثير الشيوع بين التجار، ولا حاجة إلاّ لقليل من الكلمات لاقناعهم بالعدول (عن ذلك التصنع).» [أنظر كذلك كتاب Samuelson وعنوانه **Economics**؛ الموسوعة البريطانية مادة LIBE؛ RALISM وثروة الأمم].

(٣٢) **أسباب ونتائج**، ص ١٩٧ من كتاب الأعمال الكاملة لقاسم أمين.
(٣٣) وجهتنا في السياسة، الحرية المطلقة (الجريدة في ٤ نوفمبر ١٩١١).
(٣٤) ليست هذه الدعوة جديدة في الأدب المصري الحديث، لكنها ربما بلغت أوجها مع قاسم أمين في **تحرير المرأة** حين يقول إن الامم الغربية المتمدنة تتقدم بسرعة البخار والكهرباء لتستولي على منابع الثروة في جميع أنحاء المسكونة «وكلما تقدموا في البلاد، تأخر ساكنوها. . هذا ما سماه داروين Darwin «قانون التزاحم في الحياة» (. .) فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لا مندوحة عنها، وهي ان تستعد الأمة لهذا القتال، وتأخذ له أهبتها، وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من أي نوع كانت. .» (**تحرير المرأة** ـ الجزء الثاني من اعمال قاسم أمين، ص ٧٠).
(٣٥) وجهتنا في السياسة ـ الوحدة القومية (٣). الجريدة في ١ نوفمبر ١٩١١ (عدد ١٤٠٩).

(٣٦) زينب، ص ٥٣: «العمال يحضرون طعامهم ويضعونه كعادتهم الى جانب بعضه ليتناولوه معاً جميعاً محققين في ذلك أكمل معاني الاشتراكية!».
(٣٧) وجهتنا في السياسة (٢). الجريدة في ٤ نوفمبر ١٩١١ (عدد ١٤١١).
(٣٨) زينب، ص ٢٣.

(٣٩) **المجتمع المصري**. الجريدة في ٣١ آب ١٩٠٩ (عدد ٧٥٤).
(٤٠) زينب، ص ٢٣٥.
(٤١) **الأعمال الكاملة للإمام عبده**، الجزء الأول (ص، ١٠٤).
(٤٢) راجع **الاسلام والنصرانية**. الأصل الثالث للاسلام.
(٤٣) **مذكرات في السياسة**، ج ١، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٤٤) من اللافت للنظر، أن كتاب روبنصون كروزو كان من أوائل الكتب التي ترجمها الانجليون ووزعوها على الناس لأنه يعكس قيم الطبقة الوسطى ويشدد على الفردية والعقلانية والجد سبلا لكسب رضى الله وبركته، ويلغي الواسطة بين الله وربه (راجع بحث الدكتور محمد يوسف نجم حول العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث، ص ٢٤). . فالطبقة الوسطى، حيثما تكون، تدعو إلى إلغاء الواسطة الدينية وإلى الفكر الحر!

(٤٥) كتب هيكل في الجريدة حوالي ٨٥ مقالاً، بينها أكثر من ٢٥ في المرأة، والعائلة والزواج.
(٤٦) راجع محمد عماره في **مقدمة الأعمال الكاملة لقاسم أمين** (ص ١١ ـ ١٤).
(٤٧) **مذكرات في السياسة**، ج١، ص ٢٤.
(٤٨) من هذه الكتب، كتاب محمد عمر: **حاضر المصريين أو سر تأخرهم**. راجع صفحات ١٦٤ ـ ١٦٦.

(٤٩) هيكل. المرأة والحجاب. الجريدة في ٢٤ اوكتوبر ١٩٠٨ (عدد ٤٩٨).
(٥٠) **مذكرات**، ص ٢٧.
(٥١) المرأة المصرية. مقالة هيكل في الجريدة (١٦ يونيو ١٩٠٨) (رقم ٣٨٧).
(٥٢) قضية المرأة ـ الحجاب (٢). الجريدة (١٤ اغسطس ١٩١٠) (رقم ١٠٤٤).
(٥٣) قضية المرأة ـ الحجاب (٦). الجريدة (٢٤ اغسطس ١٩١٠) (رقم ١٠٥٣).
(٥٤) قاسم أمين: **تحرير المرأة**. فصل (تربية المرأة).
(٥٥) زينب، ص ١٤٦.
(٥٦) يقول هيكل في قضية المرأة ـ الحجاب (٧) (عدد ١٠٥٤) قولاً مشابهاً لما ذكره في زينب: «إنما الزواج في مصر أخوة الضرورة وشركة عاملين في فاوريقة انتاج الأولاد!».

(٥٧) زينب، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥٨) زينب، ص ٥٠.
(٥٩) زينب، ص ١٤٢.
(٦٠) زينب، ص ٢٧٤.
(٦١) **المصدر السابق**، ص ٢٧٨.
(٦٢) زينب، ص ١٨٣.
(٦٣) هيكل، **جان جاك روسو**، ص ح من المقدمة.
(٦٤) زينب، ص ١٩٨.
(٦٥) **المصدر السابق**، ص ١٩٧.